محمد عبد الله عنان .. والجنة الغاربة

دكتور/ عبادة عبد الرحمن كحيلة
مدرس بكلية الآداب جامعة القاهرة

فى سنة ١٤٩٢ كانت زفرات الملك الصغير [1] علامة فارقة على خريطة الأندلس ، وفى سنة ١٨٩٦ كان ميلاد محمد عبد الله عنان علامة فارقة أخرى على هذه الخريطة .

حول هذا التاريخ — قبيله وبعيده — خرج الى الدنيا جيل عظيم من المصريين ، هم من ندعوهم بجيل الرواد ، وكان عنان أحدهم .

ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن عرفة العنانى المعروف بمحمد عبد الله عنان بقرية بشلا من أعمال ميت غمر بمديرية الدقهلية فى السابع من يوليو من عام ١٨٩٦ .

حصل على البكالوريا من المدرسة الخديوية بالقاهرة فى عام ١٩١٤ ، كما حصل على الاجازة من مدرسة الحقوق السلطانية فى عام ١٩١٨ .

---

(١) أبو عبد الله محمد (الحادى عشر) ١٤٨٢/٨٨٧ — ١٤٩٢/٨٩٧ آخر ملوك غرناطة ويدعوه الأسبان بـ Boabdil وبالملك الصغير El Rey Chico وورد فى المصادر القشتالية المعاصرة أنه عند رحيله مفارقا غرناطة بعد تسليمها توقف عند ربوة تطل على المدينة وأجهش بالبكاء وقد أطلق الأسبان على هذه الربوة El ùltimo suspiro Gespmoro أى زفرة المسلم الأخيرة .

عمل محاميا وعمل أيضا بالصحافة والصحافة الأدبية الى أن التحق بالوظيفة الحكومية فى عام ١٩٣٥ ، وظل بها الى أن أحيل الى المعاش فى عام ١٩٥٥ .

تزوج فى عام ١٩٣٠ آنسة نمساوية فاضلة تدعى يوهانا ، أسلمت بعد سبع سنوات وصار اسمها هناء ، وكانت هذه السيدة خير عون لزوجها فى رحلة حياته (٢) .

نشر الأستاذ عنان نحو ثلاثين كتابا فى مجالات مختلفة ، أخصها التاريخ ، وتاريخ الأندلس ، وترجم له كتابان الى اللغة الانجليزية فى بلاد الهند (٣) ، كما حاضر فى بعض المراكز العلمية بالخارج ، مثل مدرسة الدراسات الشرقية بلندن .

حصل الأستاذ عنان على جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية فى عام ١٩٧٧ ، وحصل على وسام الجمهورية من الطبقة الأولى فى عام ١٩٧٨ ، ووسام الكفاءة الفكرية من الملك الحسن فى عام ١٩٨١ ، واختير عضوا بمجمع اللغة العربية ونادى القلم الدولى .

توفاه الله فى العشرين من يناير ١٩٨٦ .

حياته فى ظاهرها منبسطة لاتوجد بها نتوءات الا فى أوائلها، ففى سنة ١٩٢١ كان أحد أربعة هم مؤسسو الحزب الاشتراكى المصرى ، سلامة موسى ، محمود حسنى العرابى ، على العنانى ، محمد عبد الله عنان .

---

(٢) معلوماتنا عن حياة الأستاذ عثمان الخاصة مستقاة من حديث لنا مع السيدة الفاضلة حرمه .

(٣) مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام Decisive moments in the history of Islam Lahore 1941 . وترجم أيضا الى الأوردية .
Ibn Khaldun. his life and works, Lahore
ابن خلدون ، حياته وتراثه الفكرى

عندما اختلف أمر هذا الحزب باختلاف زعمائه حول الموقف من الدولية الثالثة ، وما أعقب ذلك من ضربات وجهت اليه من قبل الحكومة الوطنيـــة الأولى ، ترك عنان الحزب الاشـــتراكى [٤] ولم يلتحق بأى من الأحزاب المصرية النـــاشئة ، وان كان يميـــل أحيـــانا الى حزب الأحرار الدستوريين ، خصوصا وقد جمعته صـــداقة بالدكتور محمد حسين هيكل (ت ١٩٥٦) الذى قدم لبعض كتبه[٥] فداوم على الكتابة فى السياسة والسياسة الأســـبوعية واشـــترك مع هيكل والمازنى [٦] (ت ١٩٤٩) فى نشر كتاب [٧] يهـــاجم صـــدقى باشـــا وحكومته فى عام ١٩٣١ .

انصرف عنان انصرافا تاما عن السياسة ، عقب التحاقه بالوظيفة فى عام ١٩٣٥ ، وفى العام التالى عقدت معاهـــدة تلتها حرب كبرى ، أسفرت عن هدوء نسبى فى الساحة الوطنية .

(٢)

يمثل الأستاذ عنان جيله على نحو دقيق ، فقـــد كان موسوعيا ، له دراسات ثرة فى التـــاريخ والأدب والسياســـة والاجتماع ، كما اكتملت لديه أدواته ، فكان يجيـــد الانجليزية والفرنســـية والألمانيـــة

---

(٤) راجع ماكتبه اليساريون بهذا الشأن ، خصوصا رفعت السعيد : تاريخ الحركة الاشتراكية فى مصر ١٩٠٠ — ١٩٢٥ . ط ٥ . القـــاهرة ، دار الثقافة الجديدة ١٩٨٠ ص ١٢٣ — ١٢٥ ، ٢١١ — ٢٩٦ .

(٥) مثل ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى ط ١ . القاهرة لجنـــة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٠ .

(٦) ابراهيم عبد القـــــادر المـــازنى كاتب وشـــاعر مصرى معروف ١٨٨٩ — ١٩٤٩ .

(٧) السياسة المصرية والانقلاب الدستورى .

والأسبانية ، وكان على دراية باللاتينية ، وأخرج أحد كتبه وهو مأساة مايرلنج بالعربية [٨] والانجليزية [٩] .

شارك عنان هذا الجيل فى خصيصة أخرى هامة ، وهى أنه لعب دورا تنويريا ، فهو رائد من رواد الفكر الاشتراكى فى مصر ، ولم يقصر همه على الترويج للمدرسة الفابية ، مثلما فعل سلامة موسى (ت ١٩٥٨) ، انما عرف بمختلف المدارس الاشتراكية ، حتى بعد أن فارق الحزب الاشتراكى ، وله أكثر من كتاب فى هذا المجال [١٠] .

على أن عنانا كان يفترق عن أبناء جيله ، أو كثرة أبناء جيله بنزوعه الى الرحلة ، ومفتاح شخصيته — اذا نحن استعرنا تعبير العقاد (ت ١٩٦٤) — هو أنه رحالة ، وقد داوم الرحلة ، حتى أعوام قليلة من نهاية رحلته الكبرى — رحلة حياته — وسفراته يصعب علينا احصاؤها ، وليست الأندلس سوى جزيرة ، كان هو أول الواصلين اليها .

ومزية الرحالة عن غيره من المسافرين ، أنه يلاحظ مالا يلاحظه هؤلاء ، وتستوقفه أشياء لاتستوقفهم ، وتستبد به رغبة حميمة نحو اقتحام المجهول ، وتقصيه الى أبعد أطرافه . وقد يكون هذا المجهول مخطوطة عربية أو غير عربية فى خزانة كتب بعيدة عن متناول الناس ، أو واقعة تاريخية ، يلفها سياج سميك من الغموض ، أو مذهبا اجتماعيا جديدا لم يكن ليحفل به أحد [١١] ، أو جزيرة نائية فى بحر الظلمات،

---

(٨) دار المعارف ١٩٤٨ .

(9) The Trajedy of meyerling 1945.

(١٠) من أهمها المذاهب الاجتماعية الحديثة ط ٥ القاهرة دار الشروق ١٩٧٣ .

(١١) ترجم الأستاذ عنان أطروحة طه حسين لدرجة الدكتوراه باسم « فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، تحليل ونقد » ونشرها فى عام ١٩٢٥ .

معلومات النـــاس عنها سيما فى شرقنـــا العربى ، لاتزيد عن حفنـــة من أشعار ، وحفنة أخرى من أشجان ، من حيث كونها جنة غاربة .

وضح هذا النزوع فى كتابات عنان الأولى .

يقول فى مقـــدمة كتابه تاريخ الجمعيـــات السرية والحـــركات الهـــدامة [١٢] .

« ولم أقصـــد بكتابة هذه الفصـــول أن أثير طلعة القارىء بما تضمنت من حقـــائق وبيـــانات مدهشـــة ، ولكنى أردت — كما أردت باخراج كتابى قضـــايا التـــاريخ الكبرى — أن أقـــدم الى الآداب العربية صنفا محدثا من المباحث التاريخية ، يقف منه شبابنا المفكر على ناحية من نواحى التـــاريخ الاجتماعى والتفـــكير البشرى ، لم يعن به حتى اليوم أحد من كتاب العربية » .

تتعدد موضوعات الكتاب من شيعة اسماعيلية ودروز وفرســـان المعبد والألبيين والماسونية الى العدمية والفوضوية والماركسية .

على أن هذه الرغبة فى اقتحام المجهول ، كان يرافقها فى الوقت نفسه ثقافة قانونيـــة ، بل وممارسة فى مجال القانون امتدت الى عام ١٩٣٥ ، يسرت لمؤرخنـــا خصيصة أخرى هامة ، وهى التحقق وتقصى الأدلة والمقـــارنة ، قبل أن يصدر حكما ما ، وهى صـــفة لازمة لرجل القـــانون ، مثلما هى لازمة للمؤرخ .

عندما نراجع كتبه ، نجد بعضها يجمع بين كونه تحليلا لقضـــايا هامة ، وبين كونه تحليلا لأحداث هامة ، مثل كتـــابة ديوان التحقيق وكتابه تاريخ المؤامرات السياسية .

---

(١٢) القاهرة ، دار الهـــلال ١٩٢٦ ص ٥ .

(١٣) كاتب ومؤرخ مصرى معروف ، ١٨٩٧ — ١٩٨١ .

والكتاب الأخير عرض شائق لبعض هذه المؤامرات ، يناقشها المؤلف فى جوانبها التاريخية والقانونية ، ويخرج بأن المؤامرة ظاهرة تنمو طرديا مع تقييد الحريات .

(٣)

نشر الأستاذ عنان عدة من الكتب ، كان يضع خلالها قدما فى الأدب وقدما أخرى فى التاريخ ، شأنه فى هذا شأن الأستاذ على أدهم [١٣] (ت ١٩٨١) فى صوره التاريخية والأستاذ حسين مؤنس فى كتبه وكتابه .

وفى عام ١٩٤٤ أصدر الأستاذ عنان « المآسى والصور الغوامض » وهو مجموع من الصور التاريخية الشائقة ، تحرى المؤلف معها أن تكون الشخصيات جميعها حقيقية والأحداث موثقة ، رغما عما نصادفه فيها من غرابة لا تتوافر الا فى الفن القصصى ، وأسلوب المؤلف هنا دفاق جميل . ومن ألطف مافيه الكتاب عرضه لحياة لوكريسيا بورجيا [١٤] ، فبدت لنا هذه الحسناء مختلفة عما نعرفه عنها ، وعرضه لحياة القيصرة اليزابت هابسبورج [١٥] وهو نواة رائعته مأساة مايرلنج .

والمأساة تحكى قصة حب انتهت بموت الأمير رودلف ولى عهد أبيه القيصر فرانس يوسيف ١٨٤٨–١٩١٦ ومارى فتشيرا Vetsera والقصة موثقة بمراجع عديدة ، وقد سافر المؤلف الى موقع الأحداث مرتين وزار قبر الأمير ، كما زار قبر حبيبته .

فى أسلوب شاعرى جميل يقول المؤلف [١٦] .

---

(١٤) ص ٩ — ٤١ .
(١٥) ص ٢٠٧ — ٢١٧ .
(١٦) مأساة مايرلنج : ص ٦٤ .

« ولقد جبنـا هذه الأرجاء غير مـرة أيام الخريف المشرقـة ، ونعمنا باستجلاء هذه الطبيعـة الساحرة ، وزرنا قصر مايرلنج ، أو بعبـارة أخرى البنـاء الذى أقيم فوق موقع قصر الصيد القـديم ، فى منحدر نضر من الوادى ، يخفيـه عن الأنظار البعيدة ، ووقفنـا خاشعين أمام الـكنيسة التى أقيمت فوق المكان ، الذى وقعت فيـه المأساة ، واستعرضنا مع الراهبة التى جاءت لاستقبالنا تلك الذكريات المؤثرة التى مازالت تغمر هاته الأنحاء » .

الى جانب هـذه الصور التاريخيـة ، فان لمؤرخنا مجموعة من التراجم ، ضمنها بعض كتبه ، مثل تراجم اسلامية شرقية وأندلسية ، أو اختص الترجمـة الواحـدة بمؤلف مستقل مثل ابن خلدون وابن الخطيب والحاكم بأمر الله .

ويلاحظ على عنان فى تراجمه أنه كان يهتم بشخصيات غامضة أو مختلف فى أمرها ، أوليست لدينـا معرفة واسعة عنها ، مثل الحسن الوزان وهوليو الأفريقى Leo Africanus [١٧] وهارون الرشيد[١٨] الذى يعرض عنه صـورة صحيحة بعيـدة عن الصورة المعروفة عند العامة ، وست الملك [١٩] التى ينصفها ويبين أثرهـا فى حفظ البيت الذى تنتمى اليه ، وهو يقارن بين سيرة بهاء الدين قراقوش [٢٠] فى التاريخ وبين سـيرته فى القصص الشعبى ويوضح لمـاذا تبـاينت السيرتان ، وهو فى هـذا الابان يستريب فى نسبة كتاب الفاشوش الى ابن مماتى .

ومن تراجمـه المتعـة ترجمتـه للسـان الـدين بن الخطيب (ت ٧٧٦/١٣٧٤) ولا نعلم أحداً سبقه الى الكتابة عن هذا العلامة ،

---

(١٧) ص ٣٥٤ — ٣٧٢ .
(١٨) ص ١٠ — ٣٠ .
(١٩) ٣١ — ٣٧ .
(٢٠) ٨٠ — ٨٤ .

وهو يتعرض لحياته وتراثه الفكرى ككاتب وشاعر ومؤرخ وجغرافى، ويأتى بجمل من تراجمه ووسائله وقصائده ، بل ويثبت مخطوطات قصيرة لم يسبق نشرها .

ورغما عن حب عنان لابن الخطيب واعجابه به لدرجة أن جعله رصيفا لابن خلدون (ت ٨٠٨/١٤٠٦) بل ويبزه أحيانا [٢١] ، فانه فى تحليله لشخصيته وهو تحليل متزن ، يوضح بعض صفاته ومنها الملق ونكران الصنيعة وشغفه بجمع المال وغروره ونزوعه الى الاستبداد والحقد ، لكنه يقرر أنه مات مظلوما، فقد نسب اليه خصومه المنافسون له تجديفا فى حق الله تعالى وفى حق نبيه الكريم [٢٢] .

يستطرد المؤرخ فيتحدث عن مصرع ابن زمرك (ت ٧٩٧/١٣٩٥) تلميذ ابن الخطيب وربيبه وخصيمه الذى صار أكبر الساعين فى نكبته ، كما يشير الى اعادة الاعتبار الى ابن الخطيب فى وطنه غرناطة Granada بعد خمسين عاما لمصرعه [٢٣] .

(٤)

هذا وقد اختص المؤرخ مصر بعدة من كتبه .

فى كتابه عن الحاكم بأمر الله (٣٨٦/٩٩٦ — ٤١١/١٠٢١) يحاول أن يستجلى الغموض الذى أحاط بشخصه ، ويذهب الى أنه كان يتتبع الدعوة الى تأليهه بعين الرضا [٢٤] ، وان كان يرى فى

---

(٢١) لسان الدين بن الخطيب . القاهرة ١٩٦٨ ص ٢٠٣ .

(٢٢) المرجع نفسه ص ١٦٩ — ١٧٣ .

(٢٣) المرجع نفسه ص ١٧٦ — ١٧٨ .

(٢٤) ط ٣ . القاهرة ، الخانجى ، ١٩٨٣ ص ٢٠٥ وما بعدها ، ص ٣٠٤ .

تصرفاته التى قـد تبدو شاذة ايجابيات ، تهدف الى تحقيق غايات لاريب فى حكمتها وسموها [٢٥] •

وفى كتابه عن الخطط المصرية ، يتتبع هذه الخطط وأصحابها منذ ابن عبد الحكم (ت ٨٧١/٢٥٧) حتى على مبارك (ت ١٨٩٣/١٣١١) الى جانب بحوث فى تاريخ مصر حتى نهاية العصر العثمانى ، يتصل معظمها بجوانب غامضة أو خلافيـة • ويتضـح من الكتاب اعتزازه بهذا التاريخ ، ويأسف لأن بعض مصادره مازال مخطوطا ، وهو يعد الخطط ابتكارا مصريا خالصـا ، ويعـد ابن عبـد الحكم منشئـها الأول [٢٦] •

وفى كتابه عن المؤرخين المصريين ، يتنـاول ستة عشر مؤرخا ، ابتداء بعبد الرحمن بن عبد الحكم وانتهـاء بعبـد الرحمن الجبرتى (١٢٤٠ / ١٨٢٥) ، وقد اهتم بتراث هؤلاء المؤرخين ومنهجهم فى البحث أكثر من اهتمامه بحياتهم نفسها •

ومن أطرف مافى الكتاب مقارنته بين منهج السخاوى (ت ٩٠٢/ ١٤٤٩٦) فى تحليله لشخصياته وتصويره البارع لها ونقـده اللاذع وزهـوه ، بالنـاقد الفـرنسى والمؤرخ سانت بيف Sainte Beuve (ت ١٨٦٩) [٢٧] •

* * *

(٥)

اذا انتقلنـا الى منهج عنان التـاريخى ، نلاحظ عليه حيـدته وموضـوعيته التى تعود الى فترة باكرة ، ففى عرضـه لفكر الشيعة

---

(٢٥) المرجع نفسه ، ص ١٧٣ .
(٢٦) ط ٢ ، القاهرة ، الخانجى ١٩٦٩ ص ٣ ــ ٥ .
(٢٧) ط ١ . القاهرة ، الخانجى ١٩٦٩ ص ١٣٧ ــ ١٣٨ .

الاسماعيلية ، يراجع المصادر السنية الخصيمة بقدر من التحفظ [٢٨] ورغما عن اختلافه مع الماركسيين ، فانه يشيد بالثورة الاشتراكية فى روسيا ، وما حققته من انجازات ، وسط ظروف طبيعية قاسية وحملات معادية ضدها وحصار [٢٩] • وهو فى عرضه لقضية دريفوس Dreyfus ينوه بما حاق بهذا الضابط اليهودى من عنت ، ويسهب فى ذكر تفاصيل القضية [٣٠] ، التى استثمرت فيما بعد لصالح الحركة الصهيونية •

أما ديوان التحقيق ، وما أسفر عنه من ظلم فادح للمسلمين والمسلمين المتنصرين ، فانه لا يصدر حكمه على هذا الديوان بداءة ، انما يترك الوثائق والوثائق النصرانية وحدها تتكلم يقول [٣١] ولما كان الرواية المجردة لهذه المأساة تثير من تلقاء نفسها كثيرا من الأسى والشجن ، ففى وسع القارىء أن يقدر أثناء تلاوتها ، ما آنست فى كتابتها من بواعث الانفعال والتأثير ، غير أنى اجتنبت التعليق ماستطعت ، وتركت القول لمؤرخى الغرب أنفسهم ، معتقدا أن الوثائق تغنى عن كل تعليق » •

المؤرخ الى جانب ذلك يعنى بمصادر بحثه ، وتعقبيها فى مظانها ، ولا يدخر وسعا فى اقتنائها • وجملة ماكتبه عن المؤرخ المصرى محمد ابن أبى السرور البكرى [٣٢] (ت ١٠٩٠/١٦٥٠) هو من خلال كتبه ، التى مازالت مخطوطة • وهو أول من استفاد من السفر الخامس

---

(٢٨) تاريخ الجمعيات السرية ص ٥٦ حاشية ١ .

(٢٩) المرجع نفسه ص ٢٠٩ .

(٣٠) ديوان التحقيق ص ٥٠٤ — ٥٣٧ .

(٣١) المرجع نفسه ص٠ م٠

(٣٢) راجع فى هذا الشأن الفصل الخاص بهذا المؤرخ فى « مؤرخو مصر الاسلامية » .

لمقتبس ابن حيان (ت ١٠٧٦/٤٦٩) فور العثور عليه بالخزانة الملكية فى الرباط [٣٣] • ومن أجل دراسة مفردات تراث ابن الخطيب ، قام برحلة خاصة الى أسبانيا وانجلترا والمغرب والجزائر ، كان من آثارها أن عثر فى مكتبة الجزائر الوطنية ، على مقامة وحيده له ، لم تكن معروفة من قبل [٣٤] وعثر فى مكتبة رواق المغاربة بالأزهر ، على أوراق متناثرة من مخطوط الاحاطة ، وعلى هوامشها تأشيرات للمقرى (ت ١٦٣١/١٠٤١ صاحب النفح [٣٥] ، على أن عنانا فى كتبه التاريخية البحتة ، ومنها موسوعتنا الأندلسية — لم يعن على نحو واضح بالتحليل الاجتماعى فى دراسة التاريخ ، وقد يكون ذلك غريبا على مؤرخنا ، لأنه كان على دراية بهذا المنهج ، بحكم ممارسته للعمل السياسى فى باكر شبابه وليس لدينا غير تفسير وحيد ، هو أن هذا المنهج حديث ، ولم يتنبه اليه مؤرخونا ، الا منذ أربعين سنة ، ثم ان أدواته لم تستكمل بعد ، خصوصا فيما يختص بتاريخنا الوسيط ، ولم تتضح معالمه ، وان حاول البعض أن يتعسف مع النصوص ، ليجعلها تنسجم مع أفكاره المسبقة •

ولعنان فكرة هامة ، أدار حولها كتابه مواقف حساسة فى تاريخ الاسلام ، وتتضح فى موسوعته الأندلسية ، وهى فكرة الصراع بين الشرق والغرب ، أو بين الاسلام والنصرانية ، وهو يعتقد أن هذه الفكرة ويدعوها بالصليبية ، ظلت حية عبر العصور ، بما فيها عصرنا الحديث ، وهى تشتد وتضطرم كلما بدت فورة اسلامية جديدة [٣٦] •

ونسافر مع المؤرخ الى الأندلس •

* * *

(٣٣) تراجم اسلامية شرقية وأندلسية ط ٢ . القاهرة ، الخانجى، ١٩٧ ص ٢٧٨ .

(٣٤) لسان الدين بن الخطيب ص ٥ .

(٣٥) تراجم اسلامية ص ٣٧٧ .

(٣٦) مواقف حاسمة ط ٤ . القاهرة ، الخانجى ١٩٦٢ ص ٣—٦ .

(٦)

نبـــه من جيل عنان اثنان من الفضلاء اقتحما بالأندلس أســوار الجامعة ، همـــا الأستاذ أحمد ضيف (ت ١٩٤٥) والأستاذ عبدالحميد العبادى (ت ١٩٥٧) اختص أولهما بالأدب ، واختص الآخر بالتاريخ ومع ما كان للفـــاضل الآخر من أياد ، حدثتنـــا عنها بعض معاصريه، فقـــد برز كمحاضر ، الا أن كتابه المجمل [٣٧] ، وصل الينـــا سماعا عنه ، وبه هنـــات ليس هنا مجالها ، وربما كان العبادى الكبير يدخر جهده لاعداد عباديين آخرين [٣٨] كان لهما اسهامها الواضـــح بالثغر الاسكندرى ، واختص أحدهما الأندلس باهتمامه .

على أن الريادة للأندلس داخل الجامعة تخطو خطوات أوسع مع أستاذين جليلين ، أحدهما وان كان مقلا مجيـــدا فى انتـــاجه ـ وهو الأستاذ عبد العزيز الأهوانى (ت ١٩٨٠) فان له تلامذة على اتســـاع العالم العربى ومريدين ، والآخر وان كان مكثرا مجيدا فى انتـــاجه ـ وهو الأستاذ حسين مؤنس ـ فلا له تلامذه ولا مريدون .

أين مكان الأستاذ عنان من الريادة للأندلس .

ان مكان الأستاذ عنان فى تاريخ الأندلس ، هو مكان عبدالرحمن الرافعى (ت ١٩٦٦) فى تاريخ مصر الحديث [٣٩] .

---

(٣٧) ط ١ . القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨ .

(٣٨) الأستاذ مصطفى عبد الحميد العبادى أستاذ التاريخ اليونانى ـ الرومانى بجامعة الاسكندرية والأستاذ أحمد مختار العبـــادى أســـتاذ التاريخ الاسلامى ـ الأندلس على نحو خاص ـ بجامعة الاسكندرية .

(٣٩) راجع مقالتنـــا : عبد الرحمن الرافعى مؤرخ الحركة القوميـــة « مجلة الفكر المعاصر عدد ٢٣ يناير ١٩٦٧ » .

فى سنة ١٩٢٤ أصدر محمد عبد الله عنان كتابا بعنوان « تاريخ العرب فى أسبانيا أو تاريخ الأندلس » (٤٠) ، على أنه يتضـــح من المقدمة أن تأليفه يعود الى خمس سنوات ســـابقة ، عقيب دراســـته القانونية ، وهو مايتضح من المقدمة .

يقول (٤١) : ووافق استعدادى لتنظيمهـــا واعدادها للنشر أياما تكونت فيها وحدة مصر الوطنية ، وجاشت بالقلوب آمال كبيرة » .

والكتاب يتناول تاريخ العرب فى أسبانيا حتى نهاية دولـــة بنى حمود الادارسة فى منتصف القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر، وفى الصفحات الأخيرة منه يأتى بطرف من النظم السياسية والادارية (يدعوها الاجتماعية) والعلمية والثقافية ، وينتهى بخاتمـــة ، وقـــد حرص بين حين وآخر على أن يؤرخ للممالك النصرانية ، المعـــاصرة لملكة الاســـلام ، كما كان يوثق أخبـــاره فى أحيان كثيرة ، ويقارن بين الروايات بعضها وبعض ، وبخاصة الروايات النصرانية ، ويأتى بحواش شارحه لما يرد فى المتن .

تمضى سنوات يصدر المؤرخ خلالها مجموعة من الكتب ، يعبق بعضها بريح الأندلس ، وترجم كتاب اشباخ J. Aschbach عن تاريخ الأندلس فى عصر المرابطين والموجـــدين (٤٢) ونشره فى عام ١٩٤٠ ، وأضاف اليه طائفـــة من الهوامش والتحقيقـــات والشروح وفهرســـا للاعـــلام .

---

(٤٠) القاهرة ، مطبعة السعادة ١٩٢٤ .
(٤١) يشير ضمنا الى الثورة المصرية ١٩١٩ .
وقد سبق هذا الكتاب كتاب آخر ترجمة عنان عن الانجليزية وأصدره وهو بعد طالب بمدرسة الحقوق بعنوان تاريخ أوربا الحديث ، القـــاهرة مطبعة السعادة ١٩١٥ ووصف نفسه على الغلاف بأنى حقوقى وجعـــل اهداءه الى الأمة المصرية .

(42) Geschte Spaniens Zu Zeit der Herrschaft der Almora-viden und Almohaden. Frankfurt am main 1833.

على أنه ابتداء من هـذا العـام تفرغ عنان على نحو أسـاس لموسوعته العظيمـة « دولة الاسـلام فى الأنـدلس » التى بدأ فى اخراجها فى عام ١٩٤٢ ، وجاءت فى سبعة مجلدات تضم أربعة آلاف صـفحة .

* * *

(٧)

دولة الاسـلام فى الأندلس هى موسوعة عنان وعمل حياته ، أرخ خلالها لفترة من تاريخ الاسـلام تمتد نحو ألف عام ، منذ قبيل الفتح ، حتى الطرد النهائى للمسلمين فى مطالع القرن السابع عشر .

حدد عنان المنهج الذى اتبعه فى هذه الموسوعة بقوله : (٤٣)

« هذا وقـد راعيت فى سـائر فصـول هذه القصة الأندلسية المشجية أن أسلك سبيل التوسط المعتدل بعيـدا عن الايجـاز المخل ، بعيدا فى الوقت نفسه عن الأسباب والتفاصيل الكثيرة ، الا ما دعت اليه المنـاسبات الهامة أو المواقع الحاسمة ، حريصـا خلال ذلك كله على أن أبرز الحوادث والشخصيات والصور فى اطـارها النقدى ، الذى تدعمه الوثائق والنصوص والقرائن بعيدا كل البعد عن التـأثر بالعاطفـة أو الأهواء أو الاتجاهات القومية أو الدينية من أى نوع ، وانى لأرجو أن أكون قد وفقت فى ذلك ى تأدية رسالة الحق والصدق والاعتدال فى كتابة هـذه الصـفحات المشرقة المؤسية معا من تاريخ الأمة الأندلسية » .

ولمـا كان المؤرخ يكتب عن فترة طويلة حافـلة ومصطخبة ، فانه كان يقسم كل عصر الى عصور أصغر تبعا لأصحاب السيطرة ، ويتناوله

---

(٤٣) ع ١ ق١ ط٤ . القاهرة ، الخانجى ، ١٩٦٩ ص١١ .

الأحداث المتصلة بعصر الأمير أو الخليفة أو الملك ، وهى فى مجملها أحداث سياسية ، من ثورات فى الداخل وحروب فى الخارج • ثم يأتى بتحليل لشخصية هذا الأمير ، ويثنى بالحديث عن الجوانب غير السياسية ، مثل الادارة والمال والنظام الحربى والحركة — العمرانية من مساجد وقصور وغيرها، وينتهى بالأحوال الاجتماعية والثقافية وجملة من نبه فى هذا الابان ، ولا يهمل الحديث عن الممالك النصرانية فى شبه الجزيرة ، وصلات هذه الممالك بالأندلس •

على أن المؤرخ عدل فى هذه الخطة ، فيما يختص بعصر الطوائف ، بسبب تعدد السيادات ، بتعدد الدول والدويلات وتداخل تواريخها ، بما يجعل عملية السرد مملة ومتكررة وق عالج المشكلة بأن مهد لظهور الطوائف ، ثم قسم دولها الى مجموعات عربية وبربرية وصقلبية ، وكان يتتبع ممالكها مملكة مملكة منذ بدايتها حتى نهايتها على أيدى المرابطين، ثم يتناول معركة الزلاقة Sagrajas والفتح المرابطى، ويتحدث عن الممالك النصرانية خلال القرن الحادى عشر ، وينتهى بخواص عصر الطوائف السياسية والاجتماعية والحضارية ويأتى بوثائق وملحقات •

أما كتابه الآثار الأندلسية الباقية فى أسبانيا والبرتغال ، فالى جانب كونه كتابا فى الآثار ، فمن الممكن أيضا أن يدخل فى أدب الرحلات ، وأسلوب المؤلف المتعيجعله أشبه بسياحة تاريخية ،تذكرنا بالأستاذ حسين فوزى فى سندبادياته ، ولا يصطدم القارىء معها بمصطلحات أثرية جامدة ، انما هى تتسلل برفق الى وجدانه •

والمؤلف لا يكتفى بالحديث عن الآثار الأندلسية ، أى الآثار التى تعود الى فترة السيادة العربية ، انما يتطرق أيضا الى الآثار المدجنية أى الآثار التى أقامها المدجنون المسلمون للسادة الجدد ، فضلا عن اشاراته الحديثة الهامة ، ويتتبع الآثار مدينة مدينة ، ويأتى بطرف

من تاريخها الاسلامى ، بل الرومانى والقوطى انوجد ، وما ورد بشأن الأثر فى المصادر الأدبية النصرانية •

وجرى المؤرخ على أن يضم الى موسوعته خرائط توضيحية بل رسوما تخطيطية للمعـارك الكبيرة ، مثل الزلاقة والارك Alarcos والعقـاب Las Navas De Tolosa ومصورات لبعض أبطـال الموسوعة وآثارها ، وفى نهـاية كل مجلد يأتى بكشـافات للأعـلام والجماعات والأماكن ، وفهارس للكتب والأشعار والرسائل ، الى جانب وثائق هامة ، بعضها مازال مخطوط •

❋ ❋ ❋

(٨)

وبطبيعة الحال فقـد كان على المؤرخ أن يراجع مصادر ، تبدو أحيـانا متباينة ، وقـد عالج المشـكلة بأنه كان ينـاقش الروايات المختلفة عن الحادثة الواحدة ، ويأخذ فى المتن بما يراه صحيحا منها ولا يهمل مايراه أقل وثاقة ، فيورده بالمتن أو يضيفه الى الحواشى ، أما الأخبـار الغريبـة التى يصعب تصديقها ، وان كان فى غرابتهـا ما يؤيد الحادثة ، فانه يجعلها فى الحواشى •

اذا شئنا التفصـيل نجد المؤرخ لاينحاز الى الرواية العربية ، من حيث أنها عربيـة ، وكثيرا ما ينتقدها بل ويرفضها ، حتى وان كانت الرواية النصرانيـة تجاريها ، فرغما عن اتفاق الروايتين فى المبالغة من عدد القتلى النصـارى فى معركة أقليش Uclés ٥٠١/١١٠٨ ، الا انه بعد مناقشة طويلة يصـل الى تقدير أقل (٤٤) ، وهو ينفى لقاء مهدى الموحدين بالامام الغزالى (ت ٥٠٥/١١١٢) هـذا اللقاء الذى

---

(٤٤) دولة الاسلام فى الأندلس ع ٣ ق١ ط١ ١٩٦٤ ص ٦٥ •

يستند اليه هؤلاء فى شرعية قيـامهم على المرابطين ، ولا يأبه باتفاق المصادر المعاصرة وشبه المعاصرة على ذلك [٤٥] .

وكثيرا ما كان المؤرخ يضطر الى الاعتماد على الرواية النصرانية على نحو أساسى ، لأن الرواية العربيـة ضنينه فى أحداث مثل بلاط الشهداء Tours-Poitiers [٤٦] وغزوات المسلمين فى غالة Gallia [٤٧] والمستوطنـة الاسـلامية فى فراكسينيتوم Fraxinetum [٤٨] ويفسر اقتضاب الرواية العربيـة لمعركة البلاط ١١٤/٧٣٢ ببلاغة الحادثة وروعتها ، ومثل ذلك فعله بالنسبة للقرن الأخير من تاريخ الأندلس وما تلاه .

على أن المؤرخ فى تصويره لفتنة الشهداء بقرطبـة ، لا يترك الرواية النصرانية طليقـة ، انما هو يحلل الدوافع الى هذه الفتنة ، ويفنـد دعاوى سيمونيت F. J. Simonet [٤٩] وغـيره من المتعصبين [٥٠] .

ومن أن المنصور العـامرى (٣٦٨/٩٧٨ ــ ٣٩٢/١٠٠٢) لم يصادف هزيمة واحدة فى حمـلاته المتعددة ضد نصارى الشمال ، فان المؤرخ لايستنكف عن الاتيـان بالرواية النصرانية التى تدعى هزيمته

---

(٤٥) المرجع نفسه ع٣ ق١ ص ١٦١ .

(٤٦) المرجع نفسه ع١ ق١ الفصل السادس ص ٩٢ ــ ١١١ .

(٤٧) المرجع نفسه ع١ ق١ الفصل الخامس ص ٧٧ ــ ٩١ .

(٤٨) المرجع نفسه ع١ ق٢ الفصل الثالث ٤٦٤ ــ ٤٧٥ .

(٤٩) أنظر ما ورد بهذا الشأن فى كتابه

Historia de los Mozárades de Espana Madrid 1897

الفصول من الثالث عشر الى الحادى والعشرين .

(٥٠) دولة الاسلام فى الأندلس ع١ ق١ ص٢٦٧ وما بعدها .

أو عدم ظفره فى آخر معاركه سنة ١٠٠١/٣٩١ • وقد ذهب بعض المؤرخين المحدثين الى تصديق هذه الرواية ، لكن عنانا يفندها ، لأن الملوك النصارى الذين نسب اليهم اشتراكهم فى المعركة كانوا قد ماتو جميعا قبل هذه المعركة بسنوات ، ثم ان الرواية الاسلامية لا تذكر هذه الهزيمة المدعاة للمسلمين ، فى حين ذكرت هزائم أخرى لهم [٥١] •

الى جانب ذلك ، فقد كان لثقافة المؤرخ الواسعة ، أثرها الوافر فى موسوعته ، فأفاد بمناهج علم النفس فى تحليله لشخصية المهدى ابن تومرت (ت ١١٣٠/٥٢٤) ، ويستخرج من كونه حصورا لا يأتى النساء ، مايفسر قسوته وظمأه الى سفك الدماء [٥٢] •

فى هذا الابان توصل عنان الى بعض الحقائق التى كانت محجوبة قبلا ، أو الى تدعيم لها فى حال سبق كشفها ، واذا كان ليفى بروفنسال هو أول من توصل — من خلال نص فى البيان المغرب — الى حقيقة زائدة Zaida أو سيدة Ceida حظية الفونسو السادس ملك ليون León (١٠٦٥ — ١١٠٩) وأكد أنها لم تكن ابنه المعتمد بن عباد « وانما كانت كنته »فان عنانا يعثر على نص آخر فى المعيار المغرب يؤكد هذه الحقيقة » [٥٣] •

اعتمد المؤرخ اعتمادا فائقا على المصادر الأصلية ، وبخاصة المجموعة المعروفة بأسبانيا المقدسة España Sagrada ، وتضم حوليات هامة مثل حولية ايسيدور الباجى Isidorus Pacensus

---

(٥١) المرجع نفسه ع١ ق٢ ص ٥٦٣ — ٥٦٦ •

(٥٢) المرجع نفسه ع٣ ق١ ص ١٩٢ •

(٥٣) راجع مناقشة الأستاذ عنان لهذه القضية فى المرجع نفسه ع٢ ص ٣٤٥ — ٣٤٨ •

وحولية روردريك الطليطلى Rudericus Toletanus وحوليـــة الفونسو العــــالم El Sabío ، كما كان له ولع خاص بالوثــائق المعاصرة مثل الوثائق العربيــة والمستعربيــة والمدجنيــة والقشتاليــة ، وغيرهــا من الوثائق المبثوثة فى دور المحفوظــات العــامة بمجريط Madrid وشنت منكش Simancas وبرشــلونة Barcelona وبلنســية Valencia وغرناطة وبنبلونة Pamplona وسرقطــة Zaragoza وخزائن الكتب فى الاسكوريال Escurial والفاتيكان والمعهد المصرى للدراسات الاســلامية والقرويين والرباط وغيرهــا •

أما عن المصادر العربية ، فقد كان يتعقبها مخطوطة ومنشورة ، وربما كان عنان هو أول من نوه من المحدثين بالمؤرخ الكبير أبى مروان ابن حيان ومقتبسه ، وقــد تعقب أسفاره فى بقــاع شتى ، وانتفع بقسم من السفر الثانى كان فى حوزة ليفى بروفنسال وضــاع بعد ، وما يرد عند عنــان بخصوص هــذا القسم هو مصدرنا الوحيد حتى الآن • ومن نقوله الهــامة عند كتــاب الحكم (١٨٠/٧٩٦ — ٢٠٦/ ٨٢٢) الى الكور بخصوص ثورة الربض [٥٤] ، وكذا كتاب عبدالرحمن الأوســط (٢٠٦/٨٢٢ — ٢٣٨/٨٥٢) الى ملك الروم مع الشــاعر الغزال (ت ٢٥٠/٨٦٤) وتفاصيل السفارة [٥٥] •

ومن المؤرخين المحــدثين عاود مؤرخنــا دوزى R. Dozy وليفى بروفنسال ومننديث بيدال R. Menedez Pidal وسيمونيت وبيــيرا J. Ribera وجونثالث بالنشيا A. Conzález Palencia وكوديــره F. Codera وغيرهم بل انه يعاود كوندى J. A. Conde

---

(٥٤) المرجع نفسه ع١ ق١ ص ١٠٣ — ١٠٤ •

(٥٥) المرجع نفسه ع١ ق١ ص ١٦١ — ١٦٣ •

الذى حظى بنقد لاذع من لاحقيه (٥٦) ويقرر رمزية هـــذا المؤرخ فى كونه أول جهد غربى يعتمد على مصادر عربية أبدى خلالها قدرا كبيرا من الحماسة للعرب والاشـــادة بهم ، ويصدر فى بعض المواطن أحكاما قاسية على أمته ومواطنيه ، ويخاصة سياستهم بعد سقوط غرناطة(٥٧)

الى جانب هذه المصادر ، فقد توافر لمؤرخنـــا مصدر آخر ، وهو رحلاته العديدة الى مسرح الأحداث ، وهو يتأمل الصخرة المنيعة فى كوفادونجـــا Coca Donga هـــذه الصخرة التى تـــكسر عندها المـــد الاسلامى الأول (٥٨)، ويزور شنت ياقب Santigo de Compo stela ويتنفس الجـــو المشبع بالجـــلال والوقـــار (٥٩) ، ويتملى أطـــلال الزهراء (٦٠) ويتحسر على البقيـــة المشوهـــة من قصر الجعفـــرية فى سرقسطة (٦١) ، ويترجم على المعتمد فى مثواه بأغمات (٦٢) ويحج الى مكة المهـــدى فى تينملل (٦٣) ، ويعيش الهزيمة المروعة فى العقاب ، ويعثر على سهام خلفهـــا أبناء قومه وراءهم (٦٤) أما مملكة غرناطـــة القديمة فقد كتب يقول : (٦٥)

---

(٥٦) راجع ماكتبه دوزى عن كوندى فى مقدمة كتابه

Spanish Islam, A History of the Moslems in Spain. Trans. by F. G. Stokes. London, Cass 1972 p. XXXV.

(٥٧) دولة الاسلام فى الأندلس ع ٤ ص ٥٠٦ ، وانظر أيضا مواقفه حاسية ص ٣٣٢ .

(٥٨) دولة الاسلام فى الاندلس ع١ ق١ ص ٢١١ .

(٥٩) المرجع نفسه ع١ ق١ ص ٢٢١ .

(٦٠) المرجع نفسه ع١ ق٢ ص ٤٢٢ .

(٦١) المرجع نفسه ع٢ ص ٢٨٣ .

(٦٢) المرجع نفسه ع٢ ص ٣٦٣ — ٣٦٤ .

(٦٣) المرجع نفسه ع٣ ق١ ص ٤ .

(٦٤) المرجع نفسه ع٣ ق٢ ص ٣٠١ — ٣٠٢ .

(٦٥) المرجع نفسه ع ٤ القاهرة ط ٣ ، الخانجى ١٩٦٦ ص٨ .

« ولقد كان لهذا التجوال المستفيض فى مواطن الأحداث ، وهذه المشاهدات العديدة للديار والربوع أعمق الأثر فى نفسى وفى ذهنى وفى تكييف قلمى ، حتى لقد كنت أشعر حين تدوين الحوادث وأمام مخيلتى تلك الأماكن والمشاهد ، أننى كأنما قد عشت فى تلك الأيام وفى تلك الربوع ، وبين أولئك الناس أبطال المأساة ، الذين أتتبع سيرهم ومصائرهم » .

* * *

(٩)

اذا نحن تتبعنا المؤرخ فى موسوعته ، نجده يتعاطف مع الأندلسيين ، بل ينحاز اليهم ففى تحليله لشخصية عبدالرحمن الداخل (١٣٨/٧٥٥ — ١٧٢/٧٨٨) يصفه بالميكافيلية ، الا أنه يتلمس الذرائع له [٦٦] ، بل ويتلمسها للمنصور بن أبى عامر لدى قتله ولده ، ويقرر أن هذا الولد لم يكن ليتورع عن قتل أبيه فى حال نجاح مسعاه [٦٧]، ويقول : [٦٨] لعل الاسلام فى شبه الجزيرة الأسبانية ، لم يظفر قط بمجاهد فى بطولة المنصور وتفانيه فى الذود عن دينه واعلاء كلمته ، ولعل الأندلس لم تر قط مثل المنصور ، زعيما أخلص فى خدمتها وكرس جهوده ومواهبه فى بناء قوتها وعظمتها وسحق عدوها وتحقيق أمنها ورخائها » .

عندما يقع الصدام بين الأندلسيين المرابطين ، يوالى الأندلسيين، ويقسو على يوسف بن تاشفين (٤٦٢/١٠٦٩ — ٥٠٠/١١٠٦)

---

(٦٦) المرجع نفسه ع١ م ١ ص ١٩٤ .

(٦٧) المرجع نفسه ع١ م ٢ ص ٤٥٠ ، ٥٥٠ — ٥٥١ .

(٦٨) المرجع نفسه ع١ م ٢ ص ٥٦٩ .

لقسوته عليهم ، ورغما عمــا قيل من اتصال المعتمد (٤٦١/١٠٦٩ — ٤٨٤/١٠٩١) بالنصارى فانه يدافع عنه ، وينوه بدعوته الى الوحــدة بين المسلمين بعــد سقوط طليطلة ، وينوه أيضا ببسالته فى الزلاقة، ويشير الى أن بواعث اقتحام المرابطين لشبه الجزيرة لم تكن دينيــة فقط ، وانما كانت دنيويه قبل كل شيء ، ويتساءل عن ضرورة أن يبطش المرابطون بأمراء الأندلس ، هذه البطشة ، ويعامل المعتمد وأسرتههذه المعاملة ، وكان يكفى فى حال عقابه أن ينتزع من ملكه ويعتقل [٦٩] .

هذا كله فى عبــارة أدبية راقية ، تذكرنا بويلز وماكولى وجبون، بحيث يمكن أن نتعــامل مع الموسوعة الأندلسية ، على أنها رواية أو دراما روائية ، عقدتها الصراع الدائم والدائب بين أسبانيا النصرانية وبين أســبانيا الاســلامية ، ذلك الصراع الــذى يــدعوه الأســبان بالاسترداد ولحظة التنوير هى النهــاية الحزينــة ، بطرد العرب من أسبانيا لكن عنانا يدنى من قساوة هــذه النهاية بما شنه الأندلسيون المطرودون من حرب مضادة مع الأخوين عروج وخير الدين المعــروف بذى اللحية الحمراء Barbarosa [٧٠] كما يدنى من حدة هــــذه النهاية أيضا بما خلفــه المسلمون وراءهم من آثار باقيــة فى أسبانيا والبرتغال ، تعطى الاحساس بتواصل تاريخهم عبر الزمان .

* * *

(١٠)

فى عمل عملاق محلق ومحدق يكون من الطبيعى أن تقع هنات ،

---

(٦٩) المرجع نفسه ع ٢ ص ٣٦٥ ، وانظر أيضــا تراجم اســلامية ص ٢٢٣ و ٢٢٤ .

(٧٠) راجع ماورد بشــأن جهــاد الأندلسيين والأخوين برباروسا المرجع نفسه ع ٤ الفصل الأول من الكتاب الرابع ٣٧٨ — ٣٩٢ .

لاتنقص بحال من روعته ، فالمؤرخ يصـــدق رواية ابن خلدون [٧١] عن عزم موسى بن نصير أن يلحق ببلاد الشام عن طريق القسطنطينية[٧٢] وهذا فرض بعيد ، لاتدعمه ديناميات الفتح الاســلامى ، وهو يجعل منصب القومس Comes لادارة شــئون أهل الذمة من نصـــارى ويهود [٧٣] ، والصحيح النصـــارى فقط لأن اليهود كـــان لهم رئيسهم المستقل ويدعى النـــاجد [٧٤] ، أما يوســـف الفهرى آخر ولاة الأندلس فلن يكون ابنا لعبد الرحمن بن حبيب الفهرى المتغلب على افريقية ــ كما يذهب عنان [٧٥] ــ والصحيح أنهما ينتميان الى الدوحـــة نفسها التى تصلهما بعقبة بن نافع •

على أن أكبر هذه الهنات هى تركيز المؤرخ على التطور السياسى وحده ، الأمر الذى حفزه فى موسوعته الثرة الى أن يمضى بتـــاريخه للأندس فى عصرى المرابطين والموحدين ، فيؤرخ أيضا للمغرب المعاصر لهذه الرحلة ، من حيث أن القطرين كانا يخضعان على الاجمال لسيطرة سياسة واحدة ، وكان أحرى به أن يقصر جهـــده على الأندلس فحسب هذا الاحساس الجارف بالتطور السياسى أدى بالمؤرخ الى أن لايعطى الاهتمام الكافى للتطور الاقتصادى ــ الاجتماعى ، وهو فى تحليـــله للفتنـــة التى عمت أقطار الأندلس فى أواخـــر عصر الامارة ، وبلغت أوجهـــا على يدى عمر بن حفصون (ت ٣٠٥/٩١٨) [٧٦] لا يستفيد

---

(٧١) كتاب العبر بولاق . جـ ع ص ١١٧ .

(٧٢) دولة الاسلام فى الأندلس ع١ ق١ ص ٥٣ ــ ٥٤ .

(٧٣) دولة الاسلام فى الأندلس ع/م ١ ص ٢٥١ ، ع ٤ ص٦٧ .

(٧٤) راجع أطروحتنـــا لدرجـــة الدكتوراه المعـــاصرون فى الأندلس

(٧٥) دولة الاسلام فى الأندلس ع١ م ١ ص ١٢٨ ــ ١٢٩ .

(٧٦) المرجع نفسه ع١ م ١ ص٢٨٨ وما بعدها .

من نص ابن الخطيب [٧٧] الخاص بأسـبابها مع أنه يأتى به كما يغفل ما ورد متنـاثرا فى الحوليات [٧٨] من مجاعات تكررت فى عهد الأمير محمد (٢٣٨/٨٥٢ — ٢٧٣/٨٨٦) ولم يحسن السياسة ازاءها ،فضلا عن اشتعال العصبية عند العرب [٧٩] — سيما الشامية القيسية — وتبدو الفتنة وكأنها طموح أفراد يتطلعون الى السلطة فحسب .

أما عن سقوط الخلافة الأموية ، ويخصه بفصلين [٨٠] فى عصره الأول ، فهو سرد متصل لوقائع ماجرى منذ مقتل عبد الرحمن شنجول سنة ٣٩٩/١٠٠٩ حتى نهاية دولة بنى حمود ولا نعرف ماهى الأسباب الكامنة وراء السقوط ، على أنه يعاود هذا الموضـوع فى بداية عصر الطوائف [٨١] ، ويحـدده فى صراع العصـبيات من عربية وصقلبية وبربرية .

وفى حديث المؤرخ عن خواص عصر الطوائف ، يشير الى رسالة هامة للكاتب المعـاصر ابن حزم (ت ٤٥٦/١٠٦٤) [٨٢] ينتقد فيهـا

---

(٧٧) أعمال الاعلام تحقيق ليفى بروفنسـال . بيروت دار المـكشوف ١٩٥٦ ص ٣٥ — ٣٦ .

(٧٨) ابن القوطيه تاريخ افتتـاح الأندلس تحقيق ابراهيم الأبيارى القاهرة ١٩٨٢ ص ١٠٠ .

ابن حيـان : المقتبس . س ٢ ، تحقيـق محمود مكى . بيروت دار الكتاب العربى ١٩٧٣ ص ٣٤٣ .

(٧٩) ابن حيـان : المصـدر نفسه س ٣ . نشر انتونيا ، باريس ١٩٣٧ ، ص ٣ ، ٦٦ .

(٨٠) دولة الاسلام فى الأندلس ع١ م٢ ص ٦٤٢ — ٦٧٧ .

(٨١) المرجع نفسه ع ٢ ص ١١ — ١٢ .

(٨٢) رسالة التلخيص (فى الرد على ابن الثغريله اليهودى ورسائل أخرى) تحقيق احسان عباس. القاهرة ١٩٦ ص ١٧٣—١٧٤! وما بعدها.

حكام عصره [٨٣] ، هذه الرسالة مهمة ، ويمكن أن تستخرج منهـا معلومات مفيدة عن الأحوال الاقتصـادية والاجتماعية لهـذا العصر ، لكن المؤلف يكتفى بأن يستخرج مايشى بالمغـارم الفادحة التى فرضها ملوك الطوائف على شعبهم •

كان من الأوفق للمؤرخ أيضـا أن يبـدأ موسـوعته باحاطـة جغرافية لشبه الجزيرة الأندلسـية وهو ما أهم ابن الخطيب [٨٤] فى تأريخه لغرناطه ، وهذه ضرورة لابد منهـا للتعرف على الأرض التى استحرت بها هذه الملحمة الأندلسية •

على أن لمؤرخنا عذره الواضح فى التركيز على التطورالسياسى، بسبب فقد العـديد من المصادر بعـد طرد العرب ، ثم ان التـاريخ الأندلسى له طبيعـة سياسية ، ومعظمـه حروب وقعت بين المسلمين بعضهم ضد بعض أو بين المسلمين وبين نصارى الشمال ، الأمر الذى دفع الأسـبان أنفسهم الى أن يلخصوا تاريخهم الوسيط كله فى أنه تاريخ حركة الاسترداد La Reconquista ، وهى ما يعبر عنها فى بعض الأحيـان بمعركة القرون الثمانى La Batalla de Ocho Siglos هذه الطبيعة السياسية لتاريخ الأندلس ، جعلت المصـادر حتى فى حال توافرها تغفل الجوانب الاجتماعيـة أو تشـير اليهـا من بعيـد •



(٨٣) دولة الاسلام فى الأندلس ٢٤ ص ٤٢١ — ٤٢٢ •

(٨٤) الاحاطة فى أخبار غرناطة • تحقيق محمد عبـد الله عنـان • القاهرة الخانجى ١٩٧٣ د ١ • القسم الأول ص ٩١ — ١٤٣ •

(١١)

لم يقف المؤرخ عند حد الترجمة أو التأليف بل اجتاز الى مجال التحقيق ، وهـو نشـاط بدأه فى مطلع السـبعينات ، وبعد أن أنجز موسوعته فى طبعـاتها المتعددة ، فأخرج كتابين هامين للسان الدين ابن الخطيب ، همـا الاحاطة فى أخبار غرناطة وريحانة الكتاب ونجعة المنتـاب [٨٥] ، والكتابان يقعان على التخوم بين التاريخ والأدب ، وان كانت مساحة الأدب أوفر فى الريحانة • والكتاب الأول ــ كمـا يتضح من اسمه يختص بمدينـة غرناطة واحوازها من جغرافية وخطط وأخبـار ومن نبـه من أهلها وتاريخ الأسرة النصرية الحاكمـة ، أما الريحانة فتضم نبـذا من قدمات كتب ابن الخطيب ورسـائله ونماذج من كتاباته الرسمية ، وبخاصة الصادرة عن سلاطين المغرب والأندلس ومخاطباته لهم ولغيرهم ومجموعا من رسائله وكتبه الصغيرة •

ويلاحظ على عنان فىتحقيقه للريحانة أنه يقف فى معظم الأحوال عند حد المقـابلة بين المخطوطات المختلفة بما يفيـد تصحيح النص ، ونادرا مايخرج الأشعار أو النصوص أو يعلق على حادثة أو يشير الى موضع مدينـه ، وفهارسه تقف عند فهرسين أحدهمـا للبلاد والآخر للأعـلام •

توفر المؤرخ أيضا فى سنى حياته الأخيرة على فهرسة القسـم التاريخى من الخزانة الملكية بالرباط ، وقـد صدر هذا القسم فى عام ١٩٨٠ ، ويتضح جهده فى التعريف بالمخطوط ووصفه وذكر مؤلفـه ، كما يعرف بمحتواه ، ويشير الى نظائره فى المـكتبات الأخرى ، مع

(٨٥) القاهرة ط ١ ، الخانجى ١٩٨٠ .

الاحالة الى معـــاجم الفهـــارس العالميـــة ، مثل بروكلمان وسزكين والاسكوريال والمتحف البريطانى وغيرها •

تنتهى الرحلة فى العشرين من يناير ١٩٨٦ •• ونتساءل : هـــل مصـــادفة ينتهى محمد عبد الله عنـــان من تأريخه لثغر عربى ضـــاع وقت يضيع ثغر عربى آخر ؟؟

نتساءل أيضا أين محمد عبد الله عنان من تقدير الدولة ؟؟

فى هذا الزمان الردىء يصير من الـــلائق أن يحظى من هم دون عنان بتقـــدير الدولة ، ويصير من اللائق أيضا أن يحظى هو بتقديرنا، وهذه جائزة وأية جائزة •